بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل العلم ، وآدابُ طالبه ، وأهميةُ التدرج فيه

أبيها الأخوة : لقد اختص الله عز وجل هذه الأمة بأنه لا تزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمرهم وهم كذلك، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويُبصرون بنور الله أهل العمى، ويُحيون بكتابه الموتى. فهم أحسنُ الناس هدياً، وأقومهم قِيلاً. فكم من قَتيلٍ لإبليس قد أحيوه، ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه، ومن مُبتدع في دين الله بشهب الحق قد رموه جهاداً في الله وابتغاء مرضاته .

من فضائل العلم :

أولاً: أول آية في القرآن تحث على العلم، وهي قوله تعالى: { اقرأ باسم ربك الذي خلق } .

ثانياً: لم يطلب الله تعالى من نبيه طلب الاستزادة من شيء إلا من العلم: قال الله تعالى لنبيه ﷺ: { وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } .

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي " مفتاح دار السعادة " : كفى بهذا شرفاً للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه . اهـ

ثالثاً: كليم الرحمن موسى عليه السلام يرحل في طلب العلم: أخرج الشيخان عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ تَمَارَى هُوَ وَالْحَرُّ بْنُ قَيْسِ بْنِ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ فِي صَاحِبِ مُوسَى، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ خَضِرٌ، فَمَرَّ بِهِمَا أَبِي بْنُ كَعْبٍ، فَدَعَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَى، الَّذِي سَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَى لُقَيْهِ، هَلْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ " قَالَ مُوسَى: لَا، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى: بَلَى، عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ ... " .

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ "الجامع لأحكام القرآن": فِي هَذَا مِنَ الْفِقْهِ رِحْلَةُ الْعَالِمِ فِي طَلَبِ الْإِزْدِيَادِ مِنَ الْعِلْمِ، وَالِاسْتِعَانَةُ عَلَى ذَلِكَ بِالْخَادِمِ وَالصَّاحِبِ، وَاعْتِنَاؤُ لِقَاءِ الْفُضَلَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَإِنْ بَعُدَتْ أَقْطَارُهُمْ، وَذَلِكَ كَانَ دَأْبَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَبِسَبَبِ ذَلِكَ وَصَلَ الْمُتَرَحِّلُونَ إِلَى الْحِطِّ الرَّاجِحِ، وَحَصَلُوا عَلَى السَّعْيِ النَّاجِحِ، فَسَخَتْ لَهُمْ فِي الْعُلُومِ أَقْدَامٌ، وَصَحَّ لَهُمْ مِنَ الذِّكْرِ وَالْأَجْرِ وَالْفَضْلِ أَفْضَلُ الْأَقْسَامِ .

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فِي "فتح الباري" : مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَمْنَعُهُ بُلُوغُهُ مِنَ السِّيَادَةِ الْمَحَلِّ الْأَعْلَى مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ، وَرُكُوبِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ لِأَجْلِهِ . اهـ

رابعاً: الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يرحلون في طلب العلم: أخرج الدارمي في " سننه " بسند صحيح عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ : " أَنْ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، رَحَلَ إِلَى فِضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ بِمِصْرَ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَمُدُّ لِنَاقَةٍ لَهُ، فَقَالَ: مَرَحَبًا، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ آتِكَ زَائِرًا، وَلَكِنْ سَمِعْتُ أَنَا وَأَنْتَ حَدِيثًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ مِنْهُ عِلْمٌ. قَالَ: كَذَا وَكَذَا " .

خامساً: العلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة مالا يرفعه المُلْكُ وَلَا الْمَالُ وَلَا غَيْرُهُمَا: أخرج مسلم وأبو داود عن عامر بن واثلة، أَنَّ نَافِعَ ابْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، فَقَالَ: ابْنُ أَبْرِي، قَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبْرِي؟ قَالَ: مَوْلَى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ» .

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي " مفتاح دار السعادة": قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ رَحِمَهُ اللهُ : كُنْتُ آتِي ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَهُوَ عَلَى سَرِيرِهِ وَحَوْلَهُ قُرَيْشٌ فَيَأْخُذُ بِيَدِي فَيَجْلِسُنِي مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ، فَنُغَامِزُ بِي قُرَيْشَ، فَفَطِنَ لَهُمْ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: كَذَا هَذَا الْعِلْمُ يَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا، وَيُجْلِسُ الْمَمْلُوكَ عَلَى الْأَسْرَةِ .

أخرج ابن عساكر في " تاريخ دمشق " ، وكذا الخطيب البغدادي في " الفقيه و المتفقه " : قال : قال أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحاربي : كان محمد بن عبد الرحمن الأوقص عنقه داخلًا في بطنه ، وكان منكباة خارجين كأنهما زجان^(١) ، فقالت له أمه : يا بني لا تكون في قوم ، إلا كنت المضحوك منه المسخور به ، فعليك بطلب العلم ، فإنه يرفعك .

قال : فطلب العلم قال : فولي قضاء مكة عشرين سنة قال : فكان الخصم إذا جلس بين يديه يرعد حتى يقوم .

قال : ومرت به امرأة يوما وهو يقول : اللهم أعتق رقبتي من النار قال : فقالت له : يا ابن أخ وأي رقبته لك ؟

آداب طالب العلم :

أولاً : إخلاص النية لله تعالى في طلب العلم :

قال الله تعالى : { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } .

وقال عز وجل : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ } .

وقال سبحانه وتعالى : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا } .

أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » .

(١) قال ابن سيده الأندلسي (المتوفى: ٤٥٨هـ) في "المخصص" : وَيُقَالُ أَيْضًا لِلنَّصْلِ وَالزُّجِ زُجَانٍ ... حَلْقَةٌ تَكُونُ فِي زُجِ الرُّمَحِ .

وأخرج مسلمٌ عن سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، حَدَّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " إِنْ أَوَّلَ النَّاسِ يُفْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ".

وأخرج أبو داود وابن ماجه وصححه الألباني عن سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَىٰ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يَعْنِي رِيحَهَا.

وأخرج الترمذي وابن ماجه وحسنه الألباني أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وَجْوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ».

وقال الخطيب البغدادي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع": "وَلْيَتَّقِ الْمُفَاخَرَةَ وَالْمُبَاهَاةَ بِهِ، وَأَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ نَيْلَ الرَّئَاسَةِ وَاتِّخَاذَ الْأَتْبَاعِ وَعَقْدَ الْمَجَالِسِ".

ثانِيًا: اقتران العلم بالعمل: قال الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}.

أخرج مسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أفتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت أمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية".

وعن الزهري قال: «إن للعلم غوائل فمن غوائله أن يترك العالم حتى يذهب بعلمه، ومن غوائله النسيان ومن غوائله

الكذب فيه وهو شر غوائله».

وعن الشعبي ووكيع قالوا: «كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به».

وقال أيوب السخيتاني، قال لي أبو قلابة: «يا أيوب،» إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة ولا يكن همك أن تحدث به».

وعن الحسن قال: «كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه ولسانه وبصره ويده».

وقال سفيان الثوري: «العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل».

وقال المروزي، قال لي أبو عبد الله: ما كتبت حديثاً إلا وقد عملت به، حتى مر بي أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً، فاحتجمت وأعطيت الحجامة ديناراً.

كل هذه الآثار ذكرها أبو عمر ابن عبد البر رحمته الله في "جامع بيان العلم وفضله".

ثالثاً: الحرص على تثبيت العلم والتثبت فيه، ووسائل التثبيت فيه منها:

أ- حسن القصد: قال ابن القيم في "إعلام الموقعين عن رب العالمين": "صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم على عبده، ما أعطي عبداً عطاءً بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما. بل هما ساقا الإسلام وقيامه

عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد مقصدُهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهمهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذي أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة. وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يُميز به بين الصحيح والفاقد والحق والباطل. اهـ

ب - التلقي على الشيوخ: أخرج مسلم في "مقدمة صحيحه" عن ابن سيرين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: "لَمْ يَكُونُوا يَسْأَلُونَ عَنِ الْإِسْنَادِ، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ، قَالُوا: سَمُّوا لَنَا رِجَالَكُمْ، فَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ فَيُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ، وَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ الْبِدْعِ فَلَا يُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ".

وأخرج عنه أيضاً: قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ، فَاَنْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ».

وأخرج أبو عمر ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله": قَالَ: قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ عَنْ أَرْبَعَةٍ، سَفِيهِ مُعَلِّنِ السَّفَهَاءِ، وَصَاحِبِ هَوَى يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ، وَرَجُلٍ مَعْرُوفٍ بِالْكَذِبِ فِي أَحَادِيثِ النَّاسِ وَإِنْ كَانَ لَا يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَجُلٍ لَهُ فَضْلٌ وَصَلَاحٌ لَا يَعْرِفُ مَا يُحَدِّثُ بِهِ».

وأخرج ابن عبد البر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي "جامع بيان العلم وفضله" "بَابُ كَيْفِيَّةِ الرُّتْبَةِ فِي أَخْذِ الْعِلْمِ" (١ / ٤٣١): عَنْ يُونُسَ بْنِ يَزِيدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ شَهَابٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَا يُونُسُ، «لَا تُكَابِرِ الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ أَوْدِيَةٌ، فَأَيُّهَا أَخَذَتْ فِيهِ قَطَعَ بِكَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَهُ، وَلَكِنْ خُذْهُ مَعَ الْإِيَّامِ وَاللَّيَالِي، وَلَا تَأْخُذِ الْعِلْمَ جُمْلَةً؛ فَإِنَّ مَنْ رَامَ أَخْذَهُ جُمْلَةً ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةً، وَلَكِنْ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ مَعَ اللَّيَالِي وَالْإِيَّامِ».

وأخرج أيضاً في "جامع بيان العلم وفضله" (١ / ٢١١): عَنْ وَكَيْعٍ قَالَ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ يَقُولُ: «لَا أَعْلَمُ مِنَ الْعِبَادَةِ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنْ أَنْ تُعَلَّمَ النَّاسَ الْعِلْمَ».